

Benjamin Franklin بنجامين فرنكلين

Thierry de Montbrial تيري دي مونبريال

نشر صديقنا تيري في شهر نوفمبر الماضي لدى دار نشر مقالاً بعنوان "من الضروري أن نأمل لكي" éditions des Syrtes سيرت نقوم بالعمل". وخصص الجزء الأول لشخصيات مثّلت موضوع العلاقات بين الفكر والعمل. والجزء الثاني لتحديد موقع فرنسا والبناء الأوروبي في أن نتيجة ذلك Thierry "منظور المستقبل على المدى البعيد. والرأي عند تيري تتلخص في أن الأولويتين اللتين يجب علينا أن نربط أنفسنا بهما اليوم هما بوضوح من ناحية: إجراء إصلاحات على البنيات الهيكلية من أجل مواصلة فرنسا للعولمة ومن ناحية ثانية: انطلاق أوروبا. أما الجزء الثالث من المقال فيقدم عدة أفكار أكثر عمومية عن معنى التاريخ ومستقبل الظاهرة البشرية. وننشر هنا من قبيل الصفحات المختارة الفصل المخصص لـ "بنجامين فرنكلين"، «هذا الفضولي الطلعة العبقري، التجسيد الأمريكي لقرن التنوير، الذي لعب فوق هذا دوراً مرموقاً في أثناء سنواته الباريسية عشية الثورة الفرنسية»، الذي نحتفل [في هذا العام بمرور ثلاثمائة عام على مولده. [تعليق

باريس ، ديسمبر 1776

ولد "بنجامين فرنكلين" في "بوسطن"، في 17 يناير من عام 1706. عندما أقلته السفينة - بعد سبعين عاماً في ديسمبر من عام 1776 بتكليف من "الكونجرس القاري" (الجهاز الوحيد للحكومة المشتركة الخاصة بالمستعمرات الثلاث عشرة من 1774 إلى 1788) للحصول على مساندة فرنسا - بعد ستة أشهر من إعلان الاستقلال الأمريكي الذي شارك فيه بإعطاء "جفرسون دروساً في الإيجاز في الكتابة - كانت شهرة لم تسمع مثلها أذن Jefferson Turgot "من قبل قد سبقته. كان بحسب عبارة ينسبها البعض إلى "تورجو الرجل الذي انتزع الصاعقة من" D'Alembert "والبعض الآخر إلى "دالامبير السماء والصولجان من الطغاة". مرّ بباريس مرتين من قبل (في عام 1767 وفي عام 1769) حيث قابل من قابل من العلماء. وانتخبته "الأكاديمية الملكية للعلوم" و"الأكاديمية الملكية للطب" عضواً فيهما. كان العلماء - الذين يسمونهم اليوم المتخصصين في العلوم الطبيعية - يسهمون في التنوير، أو على الأقل هكذا كان الناس يتصورونهم. كانت «الفلسفة الطبيعية» - وهكذا كانوا يسمون علم الفيزياء - تمتع الأوساط المتميزة. فقد كانت بالفعل تقوم بإجراء تجارب

مثيرة وبخاصة في مجال الكهرباء الساكنة الاستاتيكية التي بلغت فورة الكلف بها أوجها. وكان الموسوعيون يرون أنها بصفة خاصة تستشرف ضروب تقدم الحضارة. وأحاطت هالة من الإجلال بـ "فرنكلين" لأنه كان أول من نجح في تفسير الظواهر الكهربائية القوية التي تحدث في الغلاف الجوي للأرض ولأنه بصفة خاصة استخلص منها اختراعاً لا حدود لمنافعه في حياة الناس، واعتبر بنجامين فرنكلين واحداً من أولي الفضل على الإنسانية. وكان معروفاً أيضاً أنه ينحدر من أسرة متواضعة، كثيرة العيال، وأنه حقق ثراءً من عمله في الطباعة والنشر - وكان ينشر بصفة خاصة تقويماً مشهوراً - وأنه أسهم إسهاماً حاسماً في تزويد فيلادلفيا بغالبية مؤسسات النفع العامة التي أنشئت فيها. ولم يكن عدد سكان فيلادلفيا، عاصمة بنسلفانيا وهي المستعمرة التي أسسها في Quakers "الجماعة الـ"كويكرز William Penn" عام 1682 "وليام بين يزيد على ثلاثين ألف نسمة أو زهائها عندما اندفع "بنجامين فرنكلين" وهو ابن السابعة عشر إلى المغامرة. وما من شك في أن هناك من ودوا نسيان المشروع الأول للدستور الذي أعده من قبل في عام 1754 (أما المشروع الثاني فسبق بوقت قليل نزوله فرنسا). في ذلك العام كتب يقول: «أود أن أمل في أن يتعلم شعب بريطانيا العظمى وشعب المستعمرات بفضل مثل هذا الاتحاد أن يقدر بعضهما بعضاً، لا على أساس الانتماء إلى جماعتين مختلفتين لهما مصالح مختلفة، بل على أساس الانتماء إلى جماعة واحدة، لها نفس المصالح، وهو في تصوري ما ينبغي أن يسهم في تعزيز كل شيء وفي تقليل خطر انفصال مستقبلياً قليلاً كبيراً». ذلك لأن مشروع الاتحاد هذا - الذي أجهض وكان أصلاً بعيد المنال - انبنى التفكير فيه على هدف هو طرد الفرنسيين من وادي "أوهايو" الذي يربط كندا بلويزيانا. ولكن النضال في المستعمرات ختمته معاهدة باريس (1763) كما ختمه تخلي فرنسا عن طموحاتها في هذا الجزء من العالم. كانت ثلاث عشرة سنة قد انقضت على هذه المعاهدة، وكانت الظروف قد تغيرت.

كان معروفاً بكل تأكيد أن مخترع مانعة الصواعق قد أقام في بريطانيا العظمى مرتين طويلتين، علاوة على إقامته هناك وهو في الثامنة عشرة في فترة انطلاقه. عمل على مدى خمس سنوات (1757-1762) أولاً مندوباً عن مجلس "بنسلفانيا" مكلفاً منه بمهمة إيجاد حل للصراعات بين الأهالي وبين ملاك تلك المستعمرة. ثم أصبح "بنجامين فرنكلين" على مدى إحدى عشرة سنة (1764-1775) من الناحية الواقعية سفيراً، لا لـ "بنسلفانيا" فقط، ولكن أيضاً لـ "مساشوستس" و"نيو چرزي" و"چورچيا". واتسع نطاق مهمته تدريجياً فشملت مسألة أكبر هي حق العاصمة في فرض ضرائب على رعاياها فيما وراء البحار، وهي المسألة التي لن تلبث أن تشعل النار في البارود. وكانت هذه الإقامة الثانية هي التي انتهى في أثناءها بطلنا - الذي طالما ظل معجباً كبيراً ببريطانيا

العظمى وإمبراطوريتها – إلى اعتناق قضية الاستقلال.¹ كانت الظروف قد تغيرت فعلاً

تضافرت إذن كل الظروف المواتية لكي يستقبل المجتمع الباريسي الرفيع هذا الرجل الذي كان منذ ذلك الحين يجسد روح التنوير والنفور من البريطانيين استقبلاً مفعماً بألوان الحفاوة الخارقة للمألوف بل الفريدة في بابها. ووجد "بنجامين فرنكلين نفسه محط ترحيب وإعزاز الأسر الكبيرة: آل "شوازيل وآل Broglie" وآل "بروغلي Montmorency" وآل "مونمورانسي Choiseul بفضل سلوكه الكريم المرموق وبساطته La Rochefoucault" "لاروشفوكو (كان يطالع الناس بهندام متواضع وبلا شعر مستعار وبلا عطور وبلا كماليات أنيقة من الدانتيل) وبفضل طبعه الساحر. كيف يمكن أن يتخيل متخيلاً ألا يحدث ذلك في مشاعره أثراً، وهو الذي أهملته الأرستقراطية الإنجليزية أي إهمال؟ لقد دخلت الشعبية التي حظي بها هذا السيد المسن لدى السيدات في نسيج الأسطورة، وأثارت اللغظ والقليل والقال بين المتزمتين. كان على السفير الكبير في ذلك الزمان كما في الوقت الحاضر أن يجعل له حضوراً مرموقاً في المجتمع الرفيع بالبلد الذي يعمل فيه ، ولقد حقق طفل بوسطن المعجزة في هذا المضمار نجاحاً لا يستطيع أحد أن يتفوق عليه. كان بنجامين فرنكلين جواً هرجياً في استخدامه الاجتماعيات استخداماً سياسياً ، متمكناً على نحو أكثر عمومية من فن التواصل الذي دفعه إلى الأمام دفعةً بعيدةً بفضل منشوراته التي أصدرها في فيلادلفيا. وكثيراً ما صور الناس المطبعة التي أقامها في مقره في صورة وسيلة من – Valentinois في مبنى قانتيناوا – Passy "ب" "پاسي وسائل التسلية. والواقع أنه اتخذها أداة هائلة للدعاية. ومع ذلك فقد كانت الأمور حيال السلطة أكثر تعقيداً. فقد كان يثير في الملك لويس السادس عشر قصرية Polignac نفوراً كبيراً، حتى إن الملك قدم إلى الكونتيسة دي پولينياك لقضاء الحاجة مصنوعة من بورسيلين سيقر مزينة بصورة "الدكتور العزيز". وليس من شك في أن الملك كان بإحساسه يتنبأ بأن وراء استقلال المستعمرات وما يمكن أن ينجم عنها من إضعاف لبريطانيا العظمى، بصورة العالم الجديد المخططة بيرا ع "الدكتور العزيز" وهي تستشرف نهاية الحكم المطلق في العالم قد عبر منذ عام Vergennes القديم. وكان وزير خارجيته الكونت دي فيرچين 1775 بوضوح عن مساندة المستعمرات المتمردة. ولكن هوة سحيقة كانت تفصل بين المساعدة المستترة الملتوية (على النحو الذي كان بومارشيه يمارسه) وبين الالتزام الصريح الجوهري من قبل الملكة Beaumarchais وفرنكلين - Vergennes بالوقوف إلى جانب الأمريكيين. والمؤكد أن فيرچين وهما الممثلان الرئيسيان في المسرحية - كانا متواطئين. أما فيرچين فلم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً دون موافقة الملك، ويضاف إلى Vergennes التكتم الذي أشرت إليه وضع فرنسا المالي المفجع. أما فرنكلين فكانت مهمته

حساسة بقدر ارتهائها بالمساندة التي كان يحظى بها لديه والتي لم تكن خالية من نقاط الضعف. فقد كان عليه التنسيق مع زملائه وبخاصة مع جون اللذين كانا يقفان منه هو كما John Jay و جون چای John Adams آدمس يقفان من فرنسا موقف الحذر كل الحذر. ومثل هذا الوضع ليس نادراً في عالم الدبلوماسية. فكثيراً ما تأتي المشكلات في مجال المفاوضات من معسكر المفاوض نفسه على الأقل بقدر ما تأتي من المعسكر المضاد.

معاهدتا 1778 و 1783

سأكتفي هنا بأن أذكر بإيجاز ببعض الوقائع الجوهرية الخاصة بهذه اللحظة التأسيسية للولايات المتحدة الأمريكية المرتسمة في طقوس العلاقات الفرنسية الأمريكية التي يسهم فيها احتفالنا بالثلاثين لميلاد بنجامين جيش Saratoga "فرنكلين. في 17 أكتوبر 1777 استسلم في "ساراتوجا إنجليزي قادم من كندا. وحفز هذا الانتصار قضية الاستقلال وشجع أنصارها. وللانتصار جاذبية مغناطيسية قوية ليس هناك شيء آخر يضارعها فيها. وأحس بينجامين فرنكلين بأن اللحظة مواتية ليس فقط لعقد معاهدة صداقة وتجارة مع فرنسا بناء على طلب الكونجرس، ولكن لعقد تحالف حقيقي. كان على فرنسا أن تتخلى عن كل مطالبة بأرض في أمريكا وأن تلتزم بمساندة الولايات المتحدة إلى أن تحقق استقلالاً كاملاً، وأن يتواعد الطرفان على عدم عقد سلام منفرد مع بريطانيا العظمى. وبفضل تصميم بنجامين فرنكلين تم توقيع هاتين الاتفاقيتين في 6 فبراير 1778. في ذلك اليوم لبس فرنكلين بشكل رمزي نفس البدلة المهلهلة التي كان يلبسها عندما مثل أمام المجلس الخاص في مشهد مهين طبع بصمته على إقامته الأخيرة في لندن قبل خمس سنوات. ونلاحظ بعد هذا التنويه أن الأمر سيتطلب إتمامه خمس سنوات أخرى ستبرز "أو "سوفرن Rochambeau" فيها أسماء يذيع صيتها مثل "روشامبو جزاءً وفاقاً على إنجازاتها من أجل القضية الأمريكية. في هذه الأثناء Suffern ستزيد المساعدة الفرنسية لتصل إلى مبلغ كبير هو 47500000 جنياً، يرجع الفضل أغلب الفضل أساساً إلى موهبة بطلنا بنجامين فرنكلين الذي لم يتردد قط في ممارسة نوع أريب من الابتزاز لبلوغ مآربه. ولم يفعل إذك إلا ما يفعله الدبلوماسي الجيد. وبينما كان الكونجرس يتهم الحكومة الفرنسية بالشح، إليك ما كتبه بنجامين فرنكلين في أعقاب حادثة وقعت بين أحد زملائه والوزير انعقدت نيتي على أن أحقق لبلدي طالما كنت هنا كل: Vergennes: فيرجين المزايا بأن ألتزم بإرضاء البلاط الملكي؛ وأتمنى أن أمتنع أبناء وطني من أن يقولوا أي شيء يمكن أن يحدث أثراً مضاداً ومن أن ينشروا رأياً يتناقضه الناس هنا منذ حين مفاده أننا نسعى إلى الاختلاف مع فرنسا في الهدف بالتصالح مع إنجلترا.» وأسجل عابراً أن الديون المتضمنة في عقود وقعها الولايات المتحدة

لن يتم تسديدها إلا جزئياً جداً ، كما حدث فيما بعد بالنسبة إلى ديون فرنسا في
أحلك لحظات تاريخها²

بيد أن انجلترا انتهت بها الأمر إلى الاقتناع بأنها لن تنتصر. وجرى
توقيع اتفاقيات السلام في باريس وفي قرساي في مطلع شهر سبتمبر من عام
1783 بعد عشرة أشهر أو زهاءها من المفاوضات الصعبة خضع في أثناءها
الالتزام الأمريكي بعدم عقد سلام منفرد لامتحان عسير. وسيكون فيها بنجامين
فرنكلين فاعلاً أساسياً

كما بدأ الناس يلقبونه ، نحو عشرين ، «Passy وبقي "حكيم" پاسي
"كما يحكي صديقه "چفرسون ، Passy "شهرًا أخرى. و«عندما برح "پاسي
لاحت القرية كأنما فقدت شيخها الأكبر». «وعندما استأذن البلاط ، Jefferson،
الملك في الرحيل، وهو ما فعله كتابةً، وجه إليك الملك عبارات إشادة وتقريظ
حارة، ووضع تحت تصرفه محفّته الخاصة التي تجرها بغاله الخاصة الملكية،
وكانت تلك هي وسيلة النقل الوحيدة التي يمكن أن تتحملها حالته الصحية [حالة
بينجامين فرنكلين]». كان المسكين يعاني بالفعل آنذاك من نوبات نقرس عنيفة
يقول إنه يغادر Brillon "ومغص كلوي. وكتب إلى صديقه المقربة مدام "بريون
أحب بلاد الدنيا إلى نفسه. «لست متأكدًا من أنني سأكون سعيداً في أمريكا،
ولكن عليّ أن أسافر إلى هناك. يبدو لي أن الأمور في هذه الدنيا تجري على
ترتيب سيء عندما أرى كائنين خلقا ليكونا سعيدين معاً يضطران إلى

الانفصال³.» ليس من شك في أن هذا الكلام أكثر من تعبير شكلي مهذب. فقد
كان بنجامين فرنكلين أستاذاً كبيراً فيما يسمى اليوم "نظام عمل الشبكة" - ولم
يقتصر نجاحه في هذا المضار على إقامة شبكة ساعدته في عمله الدبلوماسي
بباريس. كذلك استند نجاحه على اعتناقه فن الحياة الذي أخذ به المجتمع
الفرنسي الراقي في أواخر القرن الثامن عشر. وكان ماسونياً نشيطاً ، قد رافق
فولتير في عام 1778 عند إدخاله، بل إنه أصبح المبجل في المحفل الماسوني
وعندما عينته الحكومة الفرنسية عضواً . Lalande "خلفاً لعالم الفلك "لالاند
في اللجنة المكلفة بدراسة "المسمرية" [أي طريقة العلاج بالتنويم المغنطيسي
وأدى دوره في إيدانه هذه ، Mesmer] "على طريقة الطبيب الألماني "مسمر
الطريقة. هذه النادرة وكثير غيرها من النوادر تفسر ارتباط اسم فرنكلين
بفرنسا إلى اليوم ارتباطاً وثيقاً في أمور تجاوزت حدود السياسة الكبيرة. ومن
الصعب أن يتصور الإنسان باريس بدون الشارع الذي يحمل منذ عام 1791
حيث عاش في السنوات التي شهدت ازدهار العالم Passy "اسمه في "پاسي
الجديد

العالم

لنترك الآن مؤقتاً إلى حين رجل السياسة والدبلوماسية أو رجل الدولة، ولنتحدث عن العالم. من المؤكد أن كل هذه الجوانب يمسك بعضها بعضاً بمعنى من المعاني. وقد أحدثت شهرة بينجامين فرنكلين الكثير في تسهيل عمله باعتباره رجلاً من رجال الحياة العامة. وقد حدث من قبل في التاريخ أن لعب مشاهير من العلماء دوراً في الحياة العامة مستغلين الهالة التي تحيطهم بها شهرتهم باعتبارهم "علماء". هكذا نجد قريباً منا مواقف ألبرت أينشتاين السياسية تنال انتشاراً إعلامياً كبيراً، حتى عندما رفض صانع نظرية النسبية رئاسة دولة إسرائيل الناشئة عندما عرضت عليه. ونجد أكثر قرباً منا انشقاق أندريا ذلك الانشقاق الذي أسهم في تضعف Andrei Sakharov زاخاروف *soft power* "مكانة الاتحاد السوفييتي أو ما يسمى بالإنجليزية "سوفت پاور المشهور أي القوة الضمنية أو القوة Joseph Nye بحسب تعبير جوزيف ناي التي تمنحها المكانة. وقد عجلت هذا التضعف بسقوط الاتحاد السوفييتي. في مثل هذه الأمثلة يمارس رجال العلم بصيرتهم النقدية ويقفون إلى جانب المجتمع المدني. ولكن أن يقف أحدهم إلى جانب الحكومات ، أي إلى جانب النظام الذي يميل كل مجتمع إنساني إلى أن يأخذ به لكي يعمل باسم المصلحة الجماعية ، فلا أرى حالة مارس فيها رجل علم – معروف بأنه كذلك – عملاً أقيم من "بنجامين فرنكلين". وليس هناك شك في أن الصفات اللازمة للتمييز في النشاطين – الكشف العلمي وحكم البشر – متضادة أووسع التضاد. ولهذا فالأرجح أن تكون «ظاهرة "بنجامين فرنكلين"» فريدة فذة ، وقد نجد لها على التو تفسيراً يكمن في الفضول الذي تميزت به. ولنلاحظ على أية حال منذ الآن أنه في مجال العلم لم يرتفع قط إلى الذرى التصورية وأن المهام التي نهض بها في مجال السياسة منظماً وبرلمانياً أو دبلوماسياً لم تتضمن قط أية وظيفة تنفيذية عليا، على عكس رفاقه الصغار المشاركين في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية سواء واشنطن أو جفرسون. وكذلك في مجال الأعمال من النادر أن يكون مخترع في الوقت نفسه مدير أعمال جيداً. ولكن الأمثلة العكسية أكثر عدداً. ولقد كان "بنجامين فرنكلين" واحداً منها. وفي أيامنا هذه يخطر ببالنا Bill Gates "على الفور" بل جيتس.

وعلينا لكي نقيم إسهام "بنجامين فرنكلين" في العلم أن نرجع إلى حال "الفلسفة الطبيعية" في النصف الأول من القرن الثامن عشر. كانت الثورة العلمية – أي في كلمتين: ظهور فيزياء كمية - شيئاً رائعاً. كانت المعارف النظرية في البصريات قد تقدمت تقدماً ملحوظاً في أثناء القرن السابق وبخاصة "و"هوجنس Fermat "و"فيرما Descartes بناء على أعمال ديكارت وكذلك في مجال الغاز بناءً على اكتشاف قوانين الانضغاطية التي Huygens، ولن يساوي أحدٌ Mariotte "و"ماریوت Boyle "ظلت مرتبطة باسمي "بويل

Isaac Newton "من العلماء - إلى أن يظهر أينشتاين - مجد" إسحاق نيوتن صاحب كتاب "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية" 1687 الذي ألفه باللغة *Philosophiæ Naturalis Principia Mathematica* في هذا الكتاب *Principia* اللاتينية وشاع بعنوان مختصر هو "المبادئ الهائل إلى أعيد نشره مؤخراً مزوداً بترجمة إنجليزية ومرشد للقراء⁴ يعرض عملاق الفيزياء "نيوتن" قوانين الديناميكا الثلاثة المعروفة باسم القوانين الأساسية ، وكذلك قانون الجاذبية الكونية الذي ينص على أن كل أجرام الكون تتجاذب على نحو يتناسب مع كمية المادة التي تحتويها، أي مع كتلتها، وطبقاً لمقلوب مربع أبعادها. كان هذا الإنجاز النظري الخارق للمعهد قد فتح الباب أمام التفسير العقلاني للعديد من الظواهر الطبيعية بدءاً بحركة النجوم. ولكن في وقت شباب "فرنكلين" كانت هناك ظواهر أخرى جارية من قبيل الحرارة أو الكهرباء ما تزال قيد سوء الفهم. كانت طبيعة الحرارة لا تزال غامضة كل الغموض. كان كثير من علماء الفيزياء ومن بينهم بطلنا نفسه يعتبرونها سيالاً لا وزن له يسمونه السبال "الحراري". ولم يكن [*effluvium* باللاتينية] *fluide* هناك بد من الانتظار إلى منتصف القرن التالي، إلى قدوم "يوليوس James Prescott Joule" و"جيمس پريسكوت جول Julius Mayer" ماير لاكتشاف مكافئ الحرارة والشغل ومبدأ انحفاظ الطاقة، وهو ما سيجعل انطلاق الديناميكية الحرارية الكبيرة الضاحية [= الماكروسكوبية] ممكناً، إلى أن يتيح الارتباط بالنظرية الذرية ترسيخها على أسس الميكانيكا الاستاتيكية الصلبة. وهكذا كان البحث في مسألة الحرارة في القرن الثامن عشر يتخبط

الكهرباء

ولكن الأمور قُدر لها أن تسير بخطى أسرع في مجال الكهرباء؛ وكانت ملاحظة ظواهر بسيطة مثل التدليك والتفريغ نتيجة التلامس قد عرفت الناس بها منذ العصور القديمة؛ وكان المشتغلون بها حتى بداية الثورة العلمية يعتبرونها وفي مطلع القرن [*effluvium* باللاتينية] *fluide* هي أيضاً نوعاً من السبال الثامن عشر كان الناس يعرفون نوعين من الكهرباء ، يسمونهما "الزجاجية" ولد سنة 1700 وتوفي سنة) Nollet "و"الراتنجية"، واقترح الأب "نولليه" (1770) المدرس الخاص للأسرة المالكة، والأستاذ بجامعة باريس، في أعقاب القائم على إدارة ، Charles-François Du Fay "شارل فرانسوا دي فاي فيه حديقة النباتات، نظرية تفترض وجود سيالين اثنين لا سيال واحد⁵. وبدأ "بينجامين فرنكلين" ، الذي كان الفضول سمته الأساسية، يهتم في عام 1743 بالكهرباء بعد زيارة في بوسطن. وطلب من صديقي من أهل لندن هو "بيتر أن يورد إليه بعض المستلزمات ليجري تجاربه Peter Collinson "كوللينسن الخاصة. وكان عليه أن يبعث إليه بتقارير عن تجاربه. ونؤكد هنا أن إجراء

تجارب في ذلك العصر كان بالنسبة إلى "الفيلسوف" تسلية أكثر من أن يكون الرسائل التي تلقاها ونشرها Peter Collinson "مهنة. وجمع "بيتر كوللينسن" في لندن في عام 1751 على هيئة كتاب عنوانه "تجارب وملاحظات على الكهرباء أجريت في فيلادلفيا بأمريكا". وبعد ربع قرن من الزمان كان الكتاب قد ظهرت منه عشر طبعات بالإنجليزية والإيطالية والألمانية والفرنسية. وهذا الكتاب هو الذي جعل مؤلفه شهيراً إلى هذه الدرجة وجعل أهل العلم بصفة خاصة ينتخبونه في الجمعية الملكية بلندن وفي أكاديمية العلوم بباريس، التي أقول عابراً إنها أسست في عام 1666

وسأكتفي في تعرضي لمضمون الرسائل الشهيرة⁶، دون أن أدخل في تفصيلاتها، بنقطتين. النقطة الأولى تأكيد "فرنكلين" وجود سيال واحد فقط مكون من «جزيئات دقيقة دقة مفرطة». وهو يعتبر الجسم الذي يحصل قدراً زائداً من هذا السيال مشحوناً بشحنة إيجابية. أما الجسم المشحون بشحنة منقوصة من هذا السيال فيعتبره على العكس مشحوناً بشحنة سلبية. ويرى "فرنكلين" أن الكهرباء لا تنشأ ولا تمحى، بل تنتقل فقط. وهو يفترض أنها تحدث في ذاتها أثراً تناظرياً، ولكنها تجذب المادة المنشحنة بها. إلا أن التفسير الكيفي للظواهر المعروفة تعطل نظراً لقلقة مفقودة تمكن "فرانتس – Franz Ulrich Theodosius Aepinus" أولريش تيودوسيوس إيبينوس رئيس المرصد الفلكي في سان بطرسبرج - من اكتشافها في عام 1759. أكمل "إيبينوس" فرضيات "فرنكلين" بفرضية تقول إن المادة العادية تنفر في حالة عدم وجود كمية كهرباء تعويضية لديها. وأي إنسان لديه الحد الأدنى من المعلومات الفيزيائية يتبين أننا بهذه الخاصية الشكلية البحتة لسنا بعبيدين جداً عن الرؤية الحديثة الإلكترونية للكهرباء، وأنا بفضل "فرنكلين" ما زلنا مستمرين إلى اليوم في اعتبار الشحنة الابتدائية «سلبية» وأنا سنعتبرها «إيجابية» لو انطلقنا من الصفر! وكذلك إذا رجعنا بنظرنا مما نعرف الآن إلى الوراء سندرك Charles- أن نظرية السيالين التي دافع عنها "شارل فرانسوا دي فيه Franois Du Fay" نوليه "والأب" Nollet "الواحد التي دافع عنها "فرنكلين"، بعد أن اكتشفنا وجود بوزيترونات تكاد تكون مطابقة للإلكترونات في [positons أو: بوزيتونات] positrons علامة الشحنة. ونقول بعبارة أخرى إن إسهام "فرنكلين" على ما فيه من إيضاح ونفع لم تكن له أية صفة حاسمة. وليس هذا الوضع نادراً في تاريخ العلوم، وإنما يأتي المجد الذي يرتبط باسمه دائماً نتيجة ظاهرة اجتماعية مركبة. وأضيف للذكرى أن الدنيا كان عليها أن تنتظر تجارب ضابط سلاح المهندسين التي أكملتها تجارب الإيطالي Charles de Coulomb "شارل دي كولوم بين 1784 و1789 للوصول إلى صياغة كمية حاسمة حق Volta "قولتا الحسم لقوانين جذب ودفع الشحنات الكهربائية، تمثل نقطة الانطلاق الحقيقية

للكهرمغناطيسية الحديثة. وقدر لهذه الأعمال أن تقود في سنة 1864 إلى James Clerk "المعادلات الشهيرة التي توصل إليها" جيمس كليرك مكسويل الذي يعتبر يقيناً أعظم علماء الفيزياء بين "نيوتن" و"أينشتاين"، Maxwell بفضل هذا التأليف المظفر بين الكهرمغناطيسية وبين البصريات. ونذكر بهذه المناسبة أن العلم لم يكن يعرف حتى اكتشاف الظواهر التحت-ذرية في نهاية القرن التاسع عشر من قوى الطبيعة الأربع الرئيسية إلا: الجاذبية والتفاعل الكهرمغناطيسي.

مانعة الصواعق

النقطة الثانية في رسائل "فرنكلين" إلى "كوللينسن" تختص بالكهرباء الجوية⁷. كان اختراع مانعة الصواعق هو الذي جعل "فرنكلين" مشهوراً، ولقد فاق أثره عمله النظري والتجريبي، ويرجع ذلك إلى رأيه القائل بأن البرق ما هو إلا شرارة كهربائية شديدة القوة. في الرسالة الثانية يصف "الأثر المدهش للأجسام المدببة سواء في جذب أو دفع النار الكهربائية". في الرسالة الرابعة وجزء من الخامسة (المؤرخة في 29 يولية 1750) يتوسع في وصف الشبه بين الرعد وبين كهرباء الآلات. كانت الفكرة "تحوم في الهواء" إذا جاز لنا هذا التعبير. وكل مؤرخي العلوم متفقون على هذا. وإنما يتفوق بطلنا على الآخرين في هذا المضمار بأنه اقترح إجراء تجربة قادرة على التحقق من صحة فرضيته. وهناك عرض لمشروع التجربة في ملحق الرسالة الخامسة. ويتضمن هذا العرض وضع مظلة فوق برج عال، في وسطها كرسي عازل يخرج منه سيخ حديدي مدبب يرتفع مسافة ثلاثين قدماً في الجو. وواقع الأمر أن اثنين من كانا أول من نفذ هذا Delor "و" ديلور Dalibard "الفرنسيين هما "دالبيار المشروع في مايو 1752. وفي الشهر التالي قام "فرنكلين" دون علم منه بما فعله "دالبيار" و"ديلور" بإثبات فرضيته مستخدماً ما أطلق عليه اسم الطيارة الكهربائية. كانت هذه الطيارة الكهربائية عبارة عن قطعة كبيرة من قماش الحرير نشرت على قضيبين خشبيين متعامدين على هيئة صليب بطرف حديدي مدبب متصل بدوارة من ليف القنب الموصل تنتهي بمفتاح تعزله عن اليد خيوط من الحرير. واستعان "فرنكلين" بأبنة الوحيد فأطلق الطيارة في الجو عند مرور سحب عاصفة، وفرح باجتماع شرارات من المفتاح. وأصبحت هذه التجربة الشهيرة بحق صورة من صور إبطال الشعبية ظلت محفورة في العقول على هذا النحو. وأجريت تجارب كثيرة بعد ذلك أثبتت بشكل وافر صحة الفرضية. واستنتج "فرنكلين" أن من الممكن درء الآثار الخطيرة للصاعقة بإقامة أسياخ حديدية فوق المباني توصل بالأرض. وفي سبتمبر 1753 في الرسالة الثالثة عشرة عرض "فرنكلين" بالتفصيل لماذا تقي مثل هذه الأسياخ الحديدية من آثار الصاعقة. كتب يقول إن الرعد لا يحدث انفجاراً إلا عندما تتلقى الأجسام

الموصلة الكهرباء بسرعة أكبر من قدرتها على نقلها، أي عندما تكون مفصولة أو مقسمة، عندما تكون صغيرة صغراً مفرطاً أو موصلة رديئة. ثم يقول: والنتيجة هي أن الأسياخ المعدنية المتصلة والسميكة سمكاً كافياً، إما أن تمنع الانفجار كلية من الحدوث، وإما أن تقوده إلى النهاية التي يؤدي السيخ إليها إذا حدث بين الطرف والسحب. وأذهلت فائدة مانعة الصواعق عقلية الأمريكيين العملية، وسرعان ما انتفعوا بها. وكذلك انتشرت مانعة الصواعق في أوروبا بسرعة كبيرة - ولكن سرعة انتشارها في فرنسا كانت أقل نتيجة للموقف المشاكس Nollet. "الذي وقفه الأب "نوليه

المجد واللحظة

من الممكن أن نجادل طويلاً في الأهمية الفعلية لأعمال "فرنكلين" وفي أصالتها بالقياس إلى ما كان يحدث في عصرها. وليس في هذا الجدل شيء إلا ما هو مألوف جداً. وما زال البعض إلى اليوم ينسبون أبوة نظرية النسبية Hendrich Anton "الخاصة إلى الهولندي "هيندريش أنطون لورينتس وواقع . Henri Poincaré" أو إلى الفرنسي "هنري پوانكاريه Lorentz الأمر أن من بين اكتشافات أينشتاين الأربعة الكبيرة (النسبية الخاصة، وتفسير الحركة البراونية، وتفسير التأثير الكهروضوئي والنسبية العامة) كان الاكتشاف الرابع وحده هو المنفصل عن هواء عصره. وترتبط الشهرة، في مجال العلوم كما في غيره من المجالات بجملة من العوامل يرتهن تفسيرها الكامل بعلم النفس وعلم الاجتماع. ولا يمكن تفسير شهرة أينشتاين بناءً على المعادلة البسيطة جداً : الطاقة = نصف الكتلة × مربع سرعة الضوء، ولا بالأحري بناءً على معادلات أخرى لا حدود لخصوصيتها. وإنما دخلت في الاعتبار أمور متناغمة مع حساسيات عصره منها مزاج الرجل وتاريخه وصراعاته السياسية بل ومظهره البدني. من الممكن أن تظل أسماء الكثير من العلماء أو المفكرين العظام في كل العصور مجهولة على نطاق واسع لدى الجمهور العريض، بل لدى الجماهير Albert "وألبرت أينشتاين Louis Pasteur "المتقفة. وحالة "لوي باستير Werner "من الحالات النادرة. في مقابل "قرنر هايزنبرج Einstein الذي أثار كلامه عن "علاقات التشكك" خيال أبعد الناس عن Heisenberg الذي كان المعلقون Kurt Gödel "الرياضيات، أو في مقابل "كورت جودل يعلقون على "نظرياته في النقص"، حتى وهم جلوس إلى موائد العشاء في ولد) Richard Feynman "المدينة، كم من العباقرة من أمثال "ريتشارد فيمان في عام 1918 وتوفي في عام 1988) ظلوا مجهولين على نطاق واسع؟ وقد تعمدت أن أذكر واحداً من أعظم منظرّي القرن العشرين بقي اسمه على الأقل مألوفاً لدى غالبية طلاب الفيزياء لأنه كان أيضاً أستاذاً هائلاً ومؤلف كتاب أساسي ما يزال مقروءاً ومقدّراً. أما "فرنكلين" فما أظن أنه كان سينال المجد

لو لم يعيش في تلك اللحظة التأسيسية للولايات المتحدة التي كان بزوغ العالم الجديد فيها يتطلب شخصيات تحاط بهالات الإجلال والتمجيد. وحتى اليوم، لا Steven Weinberg "يزال مؤلفاً مثل العالم الأمريكي "ستيفن وينبرج" الحاصل على جائزة نوبل يعتقد أن عليه أن يقدم أعمال سلفه الجليل بطريقة تبالغ في التمجيد مبالغة لا تقف عند حد 8

المخترع

وأقرب الظن عندي هو أن القول الفصل في أعدل تقدير للإنسان الذي "كانه" "فرنكلين" هو أن نجتهد في فهم شخصيته التي أحسن "إدموند مورجان" كما أحسن آخرون من قبيله - تصوير ثرائها الخارق - Edmund Morgan

9 للمؤلف . لا يمكن أن يشق إنسان طريقه في الحياة بكل هذه الإنجازات في مجالات متنوعة كل هذا التنوع إذا كان مجرداً من الإرادة والشجاعة ودرجة رفيعة من الانضباط. هذه الخصال التي رعاها "بنجامين فرنكلين" منذ نعومة أظفاره كانت لها مساوئها. فلم يكن بطلنا بلا شك الزوج المثالي أو الأب المثالي طبقاً للمثل الأعلى الأمريكي، ثم إن كتاب سيرته كانوا بالأحرى متحفظين فيما يمس حياته الخاصة. والحق أنه ، بما أوتي من مواهب ، كان سرعان ما يُثبت براعته باعتباره رجل أعمال حقيقي. ثم أصبح عليه فيما بعد في أنشطته التي مارسها باعتباره تاجراً أن يتغلب على العديد من الصعاب، ومن السذاجة أن يتشبث الإنسان بصورة الشيخ الحكيم، الطيب، البشوش، الباسم الذي يحقق غاياته لأن الدنيا كلها تتحني أمامه باحترام. لقد كان حكيماً محباً للمجادلة وللمناضلة. وكان فضوله أول خصاله. لم يكف في كل لحظات حياته أو جلّها عن انتهاز كل الفرص الممكنة لسؤال الطبيعة. وهكذا لم يكن يستطيع أن يشرب فنجان شاي دون أن يسأل نفسه لماذا ترتبت أوراق الشجر المرسومة عليه على هذا النحو وليس على نحو آخر. لماذا تظل نقطة الزيت على قطعة من الزجاج متماسكة، بينما تنفرش على سطح الماء مكونة طبقة رقيقة جداً بألوان متقرحة؟ ... وقاده فضوله إلى ثراء من المعرفة بتيار الخليج بمناسبة رحلاته عبر المحيط الأطلسي. كان "فرنكلين" مولعاً بحركات الماء، مولعاً كذلك بحركات الهواء والجو، وهو ما أوصله إلى صياغة فرضيات جديدة حول الظواهر الجوية. ولد "فرنكلين" قوي الملاحظة مغرمًا بالتجريب أكثر من التنظير. ولا بأس بأن أُلجأ إلى تمييز منتشر وإن غشاه الغموض، فأقول إنه كان ذا عقل يغلب المحسوس على المجرد ، ويغلب البراجماتية على العقلانية، وإنه كان على كل حال قريباً على العقل المنطومي ولم يكن إيديولوجياً إلا بأقل قدر ممكن. كان على نحو عجيب يستخدم عينيه في المشاهدة، وأذنيه في الإنصات. وبهذا النهج يلحق بعض الفيزيائيين بنفر من الفنانين أو الرسامين أو النحاتين أو الكتاب. وواقع الأمر أنه كان يستخدم ما أوتي من مواهب الملاحظة في المعرفة، لا معرفة

الأشياء فحسب، بل معرفة البشر أيضاً. وكان أحد مفاتيح نجاح "فرنكلين" يتمثل يقيناً في معرفته بالبشر، معرفة مبنية على اهتمام فعلي بممارستها (كان يقول: "أعتقد أنني أحب الصحبة") ، اهتمام فعلي يميز جيداً أساطين العمل عن المثقفين "الخالصين" الذين يهتمون بنظرية الجواهر البشري أكثر من اهتمامهم بالبشر أنفسهم. كان عليماً بالبشر، فيه شيء من الحرباء، فما كان إلا تاجراً ناجحاً؛ كان في كل موقف يجتهد في الوصول إلى حلول وسط بدلاً من أن يجتهد في فرض أفضلياته. كان الناس يحبون "فرنكلين" لأنه كان يحبهم.

وهو كذلك بارع في فن استخدام يديه في حرققة وفبركة أجهزة - أو تكليف آخرين بأن يفبركوها له. هكذا تجسم اهتمامه بدورة الهواء في ابتكار أتاح أداؤها تحسين التدفئة المنزلية (*Franklin Stove* مدفأة) مدفأة فرنكلين تحسيناً كبيراً. كذلك يعتبر مخترع النظارة المزدوجة البؤرة. وصفة "مخترع" باستخدامها البالغ الشعبية تناسبه أروع مناسبة. كان إلى حد ما على شاكلة "ليوناردو دا فينتشي" يتخيل تقنيات مستقبلية، على سبيل المثال تلك التي تهدف إلى زيادة فاعلية الملاحة. ولن أحاول بحال من الأحوال أن أعد اكتشافاته كلها أو أن أعلق عليها. ولكن من المهم أن أبرز قبل كل شيء آخر فضوله الهائل والظريف حيال الطبيعة والناس، ذلك الفضول الذي صحبه طوال حياته، حتى إذا كان ابتداءً من السنوات 1750 وما بعدها قد هجر التجارب العلمية ليركز على الخدمة العامة. وأنا استخدم هنا تعبير «الخدمة العامة» لا بمعناه الفرنسي الحالي الذي يرتبط بالدولة، وإنما بمعناه الأنجلوساكسوني الدائم - المرتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بمفهوم المليات - والذي يشير مرجعياً إلى النفع العام - ذلك النفع العام الذي - لا تنهض به الحكومة وأجهزتها - بل ينهض به بشكل أساسي جوهرى المواطنون أنفسهم والجمعيات التي يؤسسونها.

ونمسُ الآن سمة أساسية جوهرية في شخصية "بنجامين فرنكلين". فقد كَوْنُ ثروة منذ وقت جد مبكر، ولكنه لم يكن قط في أي وقت رجل مال. وهو قد لمس العلم ، ولكنه اعتبره بخاصة "فلسفة مسلية"، هي في نهاية المطاف ثانوية بالقياس الخدمة المباشرة للنفع العام. وقد رفض دائماً أن يوثق اختراعاته في سجل براءات الاختراع ، مانعة الصواعق مثلاً، التي كان يمكن أن تدر عليه عوائد مالية هائلة. كان يريد بكل مشروعاته أولاً وقبل كل شيء آخر أن ينفع القريب مباشرةً. وعندما قرر في عام 1748 وهو في الثانية والأربعين من عمره أن يعتزل حياة الأعمال ويكرس نفسه للحياة العامة، لأمته أمه. وهناك خطاب محفوظ كان "فرنكلين" أرسله إليها بعد عامين من قراره هذا ، جاء فيه : بعد موتي «أفضل أن يقول الناس عني "إنه عاش حياة نافعة" على أن يقولوا "إنه مات ثرياً"». والتقويم الذي ظل ينشره كل عام من 1733 إلى 1758 بعنوان حُشي بعبارات *Poor Richard Almanach* تقويم ريتشارد الفقير

محكمة وملحوظات عن مسألة المال. فهو يقول على لسان "ريتشارد الطيب" «لا يجتمع الرضا والثراء معاً إلا فيما ندر» وهو ما يعني بلغتنا الفرنسية: المال لا يصنع السعادة. كان "فرنكلين" مندهشاً لـ «نقطة الضعف في الإنسانية [ألا وهي] الجري وراء الثروة بلا نهاية». كذلك نقرأ في التقويم ما يلي: «إذا كانت ثروتك فعلاً ملكك فلماذا لا تحملها معك من الدنيا إلى الآخرة؟» لأن «الفائدة الوحيدة للمال هي استخدامه». وفي خطاب إلى أحد أصدقائه يذكر "فرنكلين": «فإن ما لدينا من مال يزيد عما نستطيع استخدامه ليس لنا بمعنى الكلمة، على الرغم من أننا نملكه». والواضح أن هذه الفكرة تذهب إلى بعيد جداً. وهو في عام 1750 ذاته يعبر بوضوح عن الفكرة التي مفادها أن تكريسه نفسه للخدمة العامة أهم من تكريسه نفسه للعلم. ولكنه لا يعتبر نفسه أنساناً أعلى. كذلك يذكر ببصيرة لا تخلو من براءة، أنه ليس امرؤ لا يحرك المدح مشاعره، وأن الذين يدعون أن المدح لا يحرك مشاعرهم منافقون. والحق أنه كان أستاذاً في
10
الدعاية لنفسه والترويج الذاتي

الفضائل الثلاث عشرة

هكذا نرى أن "بنجامين فرنكلين" كانت لديه أفكار واضحة جداً عن رسالته في الدنيا. ولكنه منذ طفولته كان ينادى بنفسه عن الكنائس. فبالنسبة إلى هذا الرجل الذي كان يريد أن يفكر لنفسه، لم يكن هناك معنى لا للمصير المقدر مسبقاً، ولا للخطيئة الأصلية. نذكر من عباراته النمطية قوله: «من الممكن أن تكون بعض الأعمال سيئة لأن الكتاب المقدس حرّمها، أو طيبة لأنه أوصى بها، ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون هذه الأعمال قد حرّمت لأنها تضرنا، أو تكون قد أوصى بها لأنها كانت نافعة». أو قوله: «الخطيئة ليست ضارة لأنها محرمة، ولكنها محرمة لأنها ضارة... وكذلك ليس هناك واجب نافع لأنه موصى به، وإنما يوصى بالواجب لأنه نافع». أو قوله أيضاً: «الأخلاق أو الفضيلة غاية، وما الديانة إلا وسيلة نحو هذه الغاية؛ فإذا نحن بلغنا هذه الغاية فما للوسيلة من أهمية إلا قليل». كان "بنجامين فرنكلين" من الناحية الدينية إذن مفكراً حراً، مؤمناً بوجود إله، من الممكن يقيناً أن يصطنع عبارة قولتير التالية لنفسه: «الكون يحيرني، ولا أستطيع أن أتصور أن هذه الساعة موجودة ولا يكون لها ساعاتي.» ونشاطه في الماسونية يطابق هذه الفلسفة. وما كان يمكن أن يكون هذا الرجل الطلعة الذي يلاحظ الطبيعة مندهشاً إلا متسامحاً. ثم إنه كان يكره المشاحنات العامة وكان محدثاً أفضل منه خطيباً. كل هذه السمات كانت تسير جميعاً متوافقة بعضها مع البعض الآخر. وقد سهل له انفتاحه في المسائل الدينية التغلغل في المجتمع الفرنسي الراقى، كما أرهقه في التعامل مع البيوريتانيين المتزمتين الأمريكيين الذين كانوا أقوياء أشداء

وعلينا، لكي نعرف "فرنكلين" على نحو أفضل أن نرجع إلى قائمة الفضائل الثلاث عشرة التي يقدمها في الجزء الثاني من سيرته الذاتية، تلك القائمة التي حاول فعلياً أن يستلهمها في تسيير حياته هو. ها هي ذي

القناعة: لا تأكل إشباعاً لشهوتك كلها، ولا تشرب [الخمير] مفرطاً إلى أن يطفح الكيل

الصمت: اكتف من الكلام بما يمكن أن ينفع الآخرين أو أن ينفعك؛

وتجنب المحادثات التي لا نفع فيها

النظام: اجعل لكل شيء مكاناً؛ وامنح كل ناحية من نواحي عملك وقتاً

العزم: افعل ما يجب فعله. انجز دون تهاون ما قررت إنجازَه

الاقتصاد: لا تنفق مالاً إلا فيما ينفع الآخرين أو ينفعك؛ ولا تبذر أبداً

المثابرة: لا تضيع وقتاً؛ وكن دائماً مكباً على فعل شيء نافع؛ ودع عنك

كل نشاط لا نفع فيه

الأمانة: لا تغش ولا تجرح إنساناً؛ كن عفيفاً وعادلاً، وليكن كلامك مثلك

عفيفاً وعادلاً

العدل: لا تسبب ألماً لأي إنسان بأفعالك أو بامتناعك عن فعل خير أنت

مدين له به

الاعتدال: تجنب الإفراط والتفريط؛ امتنع عن كل نقمة حتى لو اعتقدت

أنها مبررة

النظافة: لا تقبل أي اتساخ في الجسم أو الثوب أو المسكن

الهدوء: لا تدع أي شيء أو أي حدث من الأحداث الجارية أو المحتومة

يعكر صفوك

العفة: لا تمارس الأمور الجسدية إلا من أجل الصحة أو التنازل، ولا

تستسلم لها أبداً بدافع السأم أو الضعف أو المساس بطمأنينة أو سمعة كائن

من كان

التواضع: اقتد بعيسى وسقراط

أن تسعاً على الأقل Edmund Morgan "ويلاحظ" إدموند مورجان من هذه «الفضائل» ليست مرتبطة مباشرة بالأخلاق. وهي: القناعة، الصمت، النظام، العزم، الاقتصاد، المثابرة، الاعتدال، النظافة، الهدوء. أما الأربع الأخرى وهي: الأمانة والعدل والعفة والتواضع فهي تمس العلاقات مع الآخرين مباشرة تماماً، ولكن المفهوم الذي يبسطه "فرنكلين" عن العفة من الظاهر أنه لا يطابق المتطلبات المعهودة للأخلاق. والشيء الذي يبدو واضحاً جلياً هو عدم احتواء القائمة على أية إشارة مباشرة إلى الإحسان أو إلى الحب، بينما كان الإحسان والحب في رأي "مورجان" وغيره ممن كتبوا سيرة "فرنكلين" يمثلان مبدأ حياته الكبير. والمعروف أن الإحسان والحب يمثلان بالنسبة إلى المسيحيين

المطلب الأسمى الذي بدونه يفقد الإيمان معناه. وليس هناك من عبّر عن هذا أفضل من القديس بولس في الإصحاح الثالث عشر العظيم من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس والتي يذكر فيها الفضائل الإلهية وهي: الإيمان والرجاء والمحبة ، مؤكداً أن المحبة هي أكبرها. ولنذكر مع ذلك أن قائمة "فرنكلين" تتضمن على الأقل وجوداً ضمناً للفضائل الأربع الأصلية: الشجاعة موجودة وإن كان وجودها من خلال فضيلة العزم ؛ أما القناعة (على الأقل في الطعام والشراب) والعدل فمذكورتان صراحة ، ومن الممكن أن نعتبر فضيلة الكياسة Edmund "اللزمة لفضيلة الاعتدال. ولكي يجيب "إدموند مورجان عن اندهانشه يقدم التفسير التالي، يقول: إن المسيحيين يدعون أنهم Morgan يضعون المحبة على قمة سلم الفضائل، ولكنهم للأسف نادراً ما يمارسونها، وما هم على أية حال في هذا المضمار بأفضل من الآخرين؛ والخلاصة أن "فرنكلين" طبقاً لموقفه العام بالنسبة إلى الدين التزم بممارسة الإحسان أو الحب في حياته متجنباً التنويه بهما على نحو خاص. وأنا شخصياً منعطف إلى هذا التفسير؛ وكل واحد يمكنه اليوم كما كانت الحال في عصور أخرى أن يقرر للأسف أنه ليست هناك علاقة ترابط ظاهرة بين ممارسة الإحسان وممارسة الدين. ولـ "فرنكلين" في هذه النقطة يقيناً كثير من التلاميذ الذين لا يعرفهم. كان مخترع مانعة الصواعق يذهب متواضعاً إلى أنه ببساطة امرؤ نافع، وتلك سمة واردة صراحة في فضيلته السادسة (المثابرة والكب على العمل) وضمناً في "كثير من الفضائل الأخرى. أما الفضائل التسع التي يعتبرها "إدموند مورجان على أكثر تقدير مرتبطة ارتباطاً غير مباشر بالأخلاق، Edmund Morgan فإننا نعترض عليه بأنها شأنها شأن كل القواعد – بما فيها يقيناً قواعد طوائف الرهبنة – يمكن أن تُفهم على أنها حالات مكابدة في ممارسة بغية الوصول إلى الفضائل الأعلى مثل الإحسان أو الحب.

مع الآباء المؤسسين

هكذا كان الرجل الذي أثار في باريس أي أثر صبيحة العالم الجديد وعشية النظام القديم. فلما غادر الشيخ فرنسا ومعجباته ومعجبيه رجع ليعيش بين مواطنيه بقية عمره. وكرس السنوات الخمس الأخيرة من حياته للعمل كشأنه في الماضي. ولكنها لم تخل من مضض. بلغت شعبيته أوجها، ولكن الناس كانوا يلومونه على قضائه وقتاً أطول مما ينبغي في بلد موال للبابا يتربع على سدة الحكم فيه ملك. وكان المتمردون قد هونوا من نتائج التحالف مع فرنسا، ذلك التحالف الذي جرى الاتفاق عليه بدافع الضرورة لا عن رغبة. وكان جون في أوج صعودهما يجوسان John Jay و جون چای John Adams آدمس خلال الديار ويشنعان على "فرنكلين" ويتقولان على سلوكه وعلاقاته ومخالفاته في بلد يتهمونه بالخلاعة والفساد. وكان أنصار البيوريتانية المتزمتين قد زادوا

"من تشبثهم بدعاواهم المقولبة استناداً إلى مثال "فرانسوا دي موسستيه وزير فرنسا الجديد، الأرملة الذي لم يتردد في ، François de Moustier العيش دون زواج شرعي مع زوجة أخيه والسفر بصحبته إلى الولايات المتحدة. لم يكن "بنجامين فرنكلين" ينتمي إلى النخبة التي تحكم البلاد. كانت هناك أمور تفصل هذا الرجل العصامي الذي علم نفسه بنفسه عن أرستقراطي الشمال وعن زراع الجنوب القابضين منذئذ على دفة القيادة، وهي: أصوله المتواضعة أشد التواضع، وأذواقه، وعلاقاته وخيانته ابنه غير الشرعي الذي ظل مخلصاً للنظام القديم. وعلى الرغم من ذلك لا يجوز لنا أن نفرط في النبوة الدراماتيكية. فقد انتخب الشيخ البالغ الثمانين من عمره والمعتل الصحة بعد عودته رغماً عن كل شيء في "الكونجرس القاري الثاني". وانتخب لفترة ثلاثة أعوام محافظاً لولايته، وهو منصب شرفي. وكان أحد المندوبين الثمانية من "بنسلفانيا" إلى مؤتمر (كونفينشن) "فيلادلفيا" الذي انعقد في مايو 1787 لوضع الدستور، والذي آلت رئاسته إلى "واشنطن". وحضر الدورات بانتظام باعتباره جاراً. تقدم لنا معلومات Madison "وكانت المناقشات سرية ولكن يوميات "ماديسن قيمة. كان دور "فرنكلين" صغيراً ولكنه تدخل بشكل مفيد في عديد من المداولات الجوهرية. كان في المجال التشريعي يحبذ نظام المجلس الواحد على شاكلة مجلس "بنسلفانيا". ولكنه مع ذلك انضم إلى الأخذ بنظام المجلسين مقترحاً أن يكون مجلس الشيوخ هو مجلس الولايات وأن يكون مجلس النواب هو مجلس الشعب. وكان من أنصار إنشاء سلطة تنفيذية ، ولكنه كان يريد لها محدودة. وعارض "فرنكلين" وهو الفيدرالي المعتدل إعطاء الرئيس حق الفيتو وكذلك عارض عدم تحديد الولاية الرئاسية. وخلاصة الأمر أن دستور الولايات المتحدة لم يكن مطابقاً لمثلثه الأعلى - الأكثر قرباً من دستور "بنسلفانيا" - ولكن هذا الرجل المؤمن بالحل الوسط انحاز انحيازاً واضحاً لاعتماده وشارك في هذا الاعتماد مشاركة لها معناها ووزنها لما له من قدر هائل. وفي السابع عشر من سبتمبر 1787 ، يوم توقيع المؤتمر (الكونفينشن) على الدستور، كان "فرنكلين" أو هن من أن يستطيع إلقاء كلمة، فوزع ملحوظات مطبوعة بدأها بقوله: "إنني أقبل هذا الدستور على الرغم من عيوبه" وختمها بالكلمات التالية: "هكذا إذن أعطي موافقتي على هذا الدستور لأنني لا أنتظر دستوراً أفضل منه ولأنني لست موقناً من أن هذا الدستور ليس أفضل دستور ممكن." والخلاصة أن "فرنكلين" وقع على أربع وثائق تأسيسية للولايات المتحدة ، إعلان الاستقلال وأسهم "فرنكلين" في جعله Jefferson "في عام 1776 الذي كتبه "جفرسون أكثر إحكاماً؛ معاهدة 1778 مع فرنسا ومعاهدة 1783 مع إنجلترا وكان من المفاوضات الرئيسيين في الحاليتين؛ دستور عام 1787 الذي أثر فيه هامشياً. ولكنه ساعد في اعتماده

في السنوات الأخيرة من حياته وفي ختام عملية طويلة أخذ الرجل

العظيم موقفاً من العبودية. هكذا تحمس في لندن لتعليم الزنوج؛ وهكذا تحاور الذي ألف في عام 1777 Condorcet "في فرنسا طويلاً مع "كوندورسيه "أفكار عن استعباد الزنوج". وتولى في عام 1787 رئاسة "جمعية پنسلقانيا ولكنه صرف النظر عن . Quakers لإلغاء الاستعباد" التي يدعمها الكويكرز تقديم طلب إلى المؤتمر (الكونفيشن) خوفاً من رد فعل ولايات الجنوب الاستعبادية. وحيث أنه كان دائماً رجلاً عملياً براجماتياً، فقد عرف أن لكل شيء لحظة، وأن لحظة إلغاء العبودية لم تأت بعد 11

حكيم يطالب به عالمان

توفي "بنجامين فرنكلين" في 17 أبريل 1790 ولم تعرف باريس الثائرة الخبر إلا بعد شهرين تقريباً. كان "بنجامين فرنكلين" قد لقي من التعظيم ما لقي في حياته، وسيعرف اسمه في فرنسا بعد مماته إجلالاً هائلاً لم يقدر لأي من معاصريه نبيله قط. بل لقد تنامى بين 1815 و1850 في باريس وفي أقاليم فرنسا ولع حقيقي بفرنكلين نسيمه "الفرنكلينومانيا"، سواء على المستوى في Auguste Comte "النخبوي أو المستوى الشعبي. وذهب "أوجست كونت تمجيده إياه إلى الحديث عن سقراط عصري. وفي عام 1906 بمناسبة Trocadéro الاحتفال بمرور مائتي عام على ميلاده أقيم في ميدان التروكاديرو هذا العبقرى الذي: «Mirabeau: "باريس تمثال يحمل هذه العبارة لـ"ميرابو حرر أمريكا وصب على أوروبا سيولاً من النور! "الحكيم: الذي يطالب به عالمان»

هل ينبغي لي ختاماً أن استسلم للبلاغة وأن أركن إلى حياة "فرنكلين" الحقيقية أو الأسطورية لكي أدبج أنغام نشيد يهلل للعلاقات الفرنسية الأمريكية؟ إنني طالما مارست ودرست هذه العلاقات منذ أكثر من ثلاثين عاماً مما يربأ بي عن التردّي في مثل هذه الغواية. لقد اهتمت حتى الإسراف باكتشاف الشخصية التي نحتفل اليوم بها، فما يليق أن أقترح عليكم سقطة تتعارض مع طبعه كل التعارض، وإذا سمحتم لي، أقول تتعارض مع طبعي. لقد كانت العلاقات الفرنسية الأمريكية دائمة صعبة، بل صعبة جداً، ولكن على خلفية لم ينكرها منكر قط، خلفية من الإعجاب والجادبية بل ومن الفتنة في كثير من الأحيان. ومثل هذه الخلفية، كما هي الحال بالنسبة إلى كل ما هو من النوع البشري، لا يمكن أن تستمر إلا بمدد يدعمه رجال ونساء يجسمون جوهره. وما تزال أمريكا وفرنسا في بداية القرن الواحد والعشرين تحتاج إحداهما للأخرى. والسياسة الدولية لها قوانينها، وهي قوانين عسيرة، وهذا ما كان "فرنكلين" يعرفه أكثر من أي إنسان آخر. ولكن هناك ذلك التجاوب العاطفي الذي ينمى. وهذا ما كان "فرنكلين" يعرفه أيضاً، ويمارسه. وهناك أيضاً الحكمة، وهي

ضرورة على المستوى الكوني، وهي أيضاً في لحظات الجنون نادرة أعز الندرة وحيوية على أشد ما تكون الحيوية بكل ما للكلمة من معنى. لقد كان "بنجامين فرنكلين" بحق «"الحكيم: الذي يطالب به عالمنا"». فأين هو اليوم ذلك الذي نطالب به؟

Thierry de Montbrial تيري دي مونبريال

- 1 من الممكن اعتبار "بنجامين فرنكلين" في السنوات 1760 امبريالياً بريطانياً. أي أن انتماءه الأمريكي
Gordon S. Wood, *The Americanization of Benjamin Franklin*, New York, Penguin Books, 2004
انظر الفصل الثاني من الجزء الثاني 2
- النص الأصلي مكتوب بلغة فرنسية تقريبية. وقد تعلم "بنجامين فرنكلين" الفرنسية "بالجملة" دون أن 3
يبذل فيها جهوداً منظوميةً
- 4 Isaac Newton, *The Principia*, A new Translation by I. Bernard Cohen and Anne Whitman, preceded by *A Guide to Newton's Principia* by I. Bernard Cohen, University of California Press, 1999.
- 5 *Leçons de physique* هو على نحو خاص مؤلف كتاب L'abbé Nollet "الأب" نوليه 5
دروس في الفيزياء التطبيقية) الذي أعيد طبعه عدة مرات، والذي يعطي فكرة جيدة (= *expérimenta*)
في قاموس John L. Heilbron عن معارف زمانه. انظر أيضاً الققرة التي خصه بها جون ل. هيلبرون
Dictionary of Scientific Biography, vol. 10, p. 145-198 .
- 6 *Dictionary of Scientific Biography* بنجامين فرنكلين" في " I. Bernard Cohen انظر الفقرة التي خص بها 6
قاموس السير العلمية المجلد الخامس ص 129 - 139 *Scientific Biography*, vol. 5, p. 129-139
139
- 7 Johann Christian تأليف *L'Histoire de la physique* في النص التالي سأعترف من 7
نشره في عام Jacques Gabay الصادر في عام 1883 والذي أعاد چاك جاييه Poggendorff
1993، ص 522 وما بعدها
- 8 Steven Weinberg, *The Discovery of Subatomic Particles*, Revised ed.,
Cambridge University Press, 2003. انظر 8
- 9 Edmund S. Morgan, *Benjamin Franklin*, Yale University Press, 2002. وانظر كذلك : Gordon S. Wood, *The Americanization of Benjamin Franklin*, op. cit. New York, Penguin Books, 2004; J. A. Leo Lemay, *The Life of Benjamin Franklin : Journalist 1706-1730*, vol. 1 وانظر J. A. Leo Lemay, *The Life of Benjamin Franklin : Printer and Publisher, 1730-1747*, vol.2, 2005. ومن
Claude Fohlen, *Benjamin Franklin, L'Américain des lumières*, Paris, Payot 2000. "الممكن أيضاً أن نذكر كتاباً جامعاً بالفرنسية تأليف "كلود فولن
Franklin, L'Américain des lumières, Paris, Payot 2000.
- 10 ولكن فرنكلين لم يختر قط أن يقدم نفسه باعتبار أنه أحد هؤلاء الأبطال الذين تقام لهم تماثيل من «
الرخام، وكانت تطلعاته ظاهرة للعيان. وكان يُعتبر أستاذاً في فن الدعاية لنفسه، وكان يسهر بلا انقطاع
على العمل على أن يأتي ذكره في الصحف، وبخاصة الصحف التي كان ينشرها بنفسه، وكان جزئياً
Christophe Collier and James Lincoln Collier: مخترع الشهرة التي تمتع بها في حياته. « انظر
Decision in Philadelphia, New York, Ballantine Books, 1986, p. 107.
- 11 ينبغي مع ذلك الأخذ بالحرص عند تفسير موقف "بنجامين فرنكلين" من إلغاء الاستعباد. والرأي عند 11

أنه ، إذا كان مناهضاً لاستيراد» Christophe Collier and James Lincoln Collier المؤلفين
السود ، فالسبب في ذلك هو بكل بساطة أنه كان يخشى أن "يصبغوا بالسمرة" "الكائنات الأعلى" وهم
بالتحديد "البيض والحمرة الرائعون". وكان هذا اتجاه الشماليين بامتياز : لقد كان الاستعباد في رأيهم بلا
أدنى شك لأخلاقياً مستحقاً للوم؛ وسواء كان الأفارقة أحراراً أم عبيداً، فلم يكونوا موضع ترحيب، وكان
Christophe Collier and James Lincoln Collier: هدف الشماليين النهائي هو تطهير المجتمع من وجودهم تطهيراً كاملاً. انظر
and James Lincoln Collier, *Decision in Philadelphia*, New York, Ballantine
Books, 1986, p. 188.

Revue des revues, sélection de janvier 2007

Thierry de MONTBRIAL : « Benjamin Franklin »
article publié initialement dans *Commentaire*, N°115, automne 2006.

Traducteurs :

Anglais : Roger Leverdier
Arabe : Mostafa Maher
Chinois : Yan Suwei
Espagnol : Erika Gil Lozada
Russe : Ekaterina Belavina

Droits :

© Éditions des Syrtes pour la version française
© Roger Leverdier /Bureau du livre de Londres pour la version anglaise
© Mostafa Maher /Centre français de culture et de coopération du Caire – Département de Traduction et d'Interprétation pour la version arabe
© Yan Suwei/Centre culturel français de Pékin pour la version chinoise
© Erika Gil Lozada /Institut français d'Amérique latine pour la version espagnole
© Ekaterina Belavina /Centre culturel français de Moscou pour la version russe